الخطاب السردي في النص القرآني

"خصوصية الرؤية وإبداعية المشهد"

د. لطفي فكري محمد الجودي

أستاذ مساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

جامعة الأزهر/ فرع قنا ـ جمهورية مصر العربية

مقدمة

يعد النص القرآني الأكثر تلقيا في الثقافة العربية بما يجعل منه المكون الأكثر تجذرا في الشخصية العربية من جهة، والمحفز الأكثر فاعلية لكل أداء جمالي من جهة أخرى. فقد شغل القرآن الكريم موقعا كبيرا في الذهنية الإسلامية العربية، وكان للخطاب السردي القصصي فيه موقعا مركزيا شغل مساحة كبيرة من فضائه.. لذاكان من المهم أن نتأمل فيه ونرى ما يمكن أن يمنحنا إياه . علي مستوي البنية الفنية . في سبيل غايتنا لبناء نظرية يمكن أن تفيد منها السردية العربية.

وبخاصة وأنه قد شاع في خطاب كثير من مؤرخي الأدب العربي نسبة الأنواع السردية فيه إلى تواصلنا مع الغرب تعريبا وترجمة إلى أن استوت على ساقها نوعا أدبيا، ملتفتين على استحياء إلى بعض الأنواع السردية العربية القديمة من أيام ومجالس ومقامات ومنامات وليال... وغالبا ما

المنارة للاستشارات

غضضنا النظر عن النص القرآني وما تحتويه خطاباته من قصص تعد من أرقي وأصدق الأنواع السردية.

ولكن حتى تتاح لنا هذه الغاية لابد من اقتحام هذا المجال لنكون أكثر اقترابا من ثقافة النص القرآني الذي نستخلص منه المرتكز المعرفي الذي سيكون حاملا لأسس وغايات ما نصبوا إليه في تكوين مسار متميز نؤطر به لخطاب سردي عربي يخالف في مقولاته الفكرية والجمالية خطاب الآخرين من غير أهلها . وهو ما تروم الوصول إليه هذه الورقة البحثية . إن شاء الله تعالي.

أولاً. الخطاب السردي القرآني: فعالية تواصلية:

الخطاب السردي من أهم الفعاليات التواصلية في التأثير علي النفوس والسيطرة علي الأفئدة. فهو يشكل عاملا مهما في إنجاح أية دعوة من الدعوات التي يراد بثها وإبلاغها للمخاطبين. ولقد استخدم القرآن الكريم الخطاب السردي في كثير من المواقف، بوصفه أداة من أدوات التبليغ والدعوة الإسلامية، والتي يناط بها التبصر بمبادئ الدعوة والكشف عن مقاصدها في نفوس المخاطبين .

فقد شغل الخطاب السردي حيزا كبيرا من النص القرآني، وتماهت موضوعاته بموضوعات القرآن الكريم تماهيا قويا لا يمكن فصله. فالقرآن الكريم كله . بما فيه من قصص . يمثل كلا واحدا، سواء في موضوعاته أم في أسلوبه أم في مقاصده. غاية الأمر أن القصة تتناول الموضوع القرآني

المنارة للاستشارات

تناولا فنيا، وهذا لايعني أن الفن هو المراد الأول لتحقيق هذا الهدف السامي، بل هي إحدى وسائل القرآن لتحقيق مبادئ الدعوة والتمكين لتعاليم الدين في النفوس[97].

فالخطاب القرآني وإن كان يحتوي على امتداد فضائه وضعيات قصصية متفرقة، إلا أنها ليست كاملة أو مستمرة، بحيث تخضع في كل فعل سردي يتوخى التواصل الهادف لتوالٍ زمني مألوف؛ يرغب في حمل المتلقي على فهم رسالته، والانفعال لأثره والاستسلام لتوجيهه.

إن وضعية الخطابات القصصية في القرآن الكريم جاءت على غير المألوف في الثقافات الأخرى، وعلى خلاف ما عهدناه في السرديات السابقة عليه، سواء ذات الأصول السماوية أو ذات الأصول الوضعية.. لقد جاء الخطاب القصصي القرآني نسيجا متفردا، غير متأثر بغيره، لكنه حقق كل ما يمكن أن يتوخاه أي فعل سردي من تواصل هادف؛ بل استطاع بمزجه للأحداث والوقائع والشخصيات مع المواضيع الأساسية التي يهدف إلي توصيلها أن يهيئ الأسباب النفسية والأجواء الفكرية والأسس العقلية كي ينفعل المتلقي بالأحداث، ويتفاعل معها، ويراها أمامه مرصودة رغم تفرقها؛ فيعيشها مشاهد حية ناطقة على مستوى الكتابة، وكأن له بها صلات معينة، فينصهر في بوتقتها حتى يصبح في حالة تماهٍ من نوع خاص.

---

97) ينظر: محمد عبد اللاه عبده دبور: (أسس بناء القصة من القرآن الكريم . دراسة أدبية ونقدية)، رسالة عالمية . دكتوراه، مخطوطة، كلية اللغة العربية بالمنوفية، جامعة الأزهر 1417هـ . 1996م، ص24.

المنارة للاستشارات

وإذا كان الخطاب السردي (الحكائي) يقتضي بالضرورة وجود قصة ما بوصفها تجسد عملية "التلفظ الذي ينتج الحكي" [98]، فإنه يفترض أيضا وبصورة منطقية وجود (سارد/راوٍ) لهذه القصة، كذلك يفترض وجود من تحكى له هذه القصة (المسرود له/ المتلقي)، لبنية الحكي، والمنوط به التفاعل مع المعاني والأحداث المضمنة فيها.

فالخطاب السردي القرآني هذا الشكل يقتضي تواصلا ما بين طرف أول هو (السارد/ الراوي) وطرف ثان هو (المسرود له/ المروي له)، ولأن هذا التواصل هو مناط الحكي، والمترتب على السرد، تكون بنية السرد خطابا تواصليا مهما، يجسد قناة من قنوات الإفهام.. التي يتم بواسطتها تلقي المعاني وإدراكها.

وإذا كان ما سبق يتحدد أو ينطبق علي سرديات الخطاب الوضعي، كما حددها روادها المشتغلون بها، فإن السردية القرآنية تختلف . بخصوصياتها الموضوعية والجمالية . وتتشكل وفق تصورات فنية مخصوصة، تحافظ على البنية التركيبية للنص الذي سيقت فيه، وعلى المحتوى الذي تعالجه.

وهو ما يعني أن مرجعية السرد في الخطابين القرآني والوضعي تختلف اختلافا بينا، فالسرد في الخطاب القرآني مرجعيته تحيل إلى الله . سبحانه وتعالي . وتهدف إلى الكشف عن عقيدة التوحيد للمتلقي، بينما تنبثق مرجعية السرد في

98) مينكونو: (عناصر لسانية من أجل النص الأدبي)، ترجمة: رشيد بن مالك، دار الحوار، سوريا، ١٩٨٦م، ص 36.

المنارة للاستشارات

الخطاب السردي الأدبي من الذات الإنسانية وأحاسيسها ومشاعرها من خلال صور الإبداع[99].

ولأجل ذلك لابد أن يختلف النظر إلى القصة القرآنية عن القصة الأدبية، إذ القصة القرآنية ليست للتذوق الأدبي أو للمتعة، بل هي فريدة في طابعها وغايتها وتكوينها [100]. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو السارد ـ يحرك المسرود ضمن وعي مسبق وفق مشيئته، وطبقا لسابق علمه لأنه (عليم حكيم)، ولأن هذا السرد ذو منبع إلهي لا يمكن أن يكون عرضة لمنطق المفاجأة، وأن المسرود فيه حتما سوف يشير إلى وقائع تجسد بسرديتها الموضوع والفكرة المنسجمة مع روح العقيدة الإسلامية.

ثانيا ـ الخطاب السردي القرآني: خصوصية نصية :

إذن، فهذه الظاهرة تعد من خصوصيات النص القرآني ككل، لأنه لا يجمع (نصوصه/آياته) في شكل مواد معينة أو موضوعات محددة، فيرتبها حسب مضامينها. بمعني أنه لا يطرحها في إطار حقول"موضوعاتية" حسب الأهمية أو التسلسل المركزي الموضوعي خاصة. فإذا كانت المواضيع التي يطرقها كثيرة ـ وهي بالفعل كذلك ـ إلا أنها تأتي مبثوثة في ثنايا الكتاب الكريم ككل..

---

99) فاطمة الطبال بركة:(النظرية الألسنية عند رومان جاكسبون)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت 1993م، ص66، 67.

100) ينظر: د. تمام حسان: (البيان في روائع القرآن)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج ٢، القاهرة 2000م، ص353.

المنارة للاستشارات

وجاء المضمون القرآني مبنيا على هذه المادة المعرفية، فصيغ بنهج إنشائي دفع باللغة إلى كمالها الحضاري، فوجود مثل هذا النص اللغوي المعجز يعد مكسبا معرفيا من شأنه ضمان فعالية (النتائج / الموضوعات) المطروحة... والتي يمكن الخلوص إليه .

وما سبق يؤكد أن الخطابات القرآنية الموضوعية.. تأتي في سياقات أن القصص القرآني حق، وأن هذا الحق مرسل من عند الله سبحانه وتعالي، وهو الحق جل وعلا. فعملية القص في القرآن الكريم بصريح العبارة صادرة من ذات إلهية كمرسل وسارد وفاعل أول؛ يعطيها مصداقية تامة لواقعيتها بشكل متين.

لقد أفرغ المولي سبحانه وتعالي على عملية القص من جلال اسمه هبته، ومن عظيم سلطانه قدرته، ومن اسمه الحق طبيعته.. وذلك في معرض الحديث عن أصحاب الكهف؛ وهي القصة التي خلخلت مستويات التفكير المنطقي، وزعزعت ذوي القلوب المترددة والعقولالمتقلبة.. فكيف إذا كانت هذه حقا وحقيقة وهي تسرد حدثا خارقا، لم يتمكن بعضهم من استساغته لما في قلبه.. ألا يكون ما سواها من القصص واقعا حقا، كما في قصة "الفتية" في سورة الكهف.

لأن هذه الخطابات القصصية مرسلة من عند الله الحق، فهي تحمل خصوصية نصية فريدة تميزها عن غيرها من الحقول النصية الأخرى. فإن الله عز وجل يسوقها من خلال نماذج فاعلة أو منفعلة . علي اختلاف تنوعها . تحمل مبادئ وأفكارا ونظراتـومفاهيم ورؤى ذات مصداقية .. تختلف باختلاف العقول والطبيعة والانتماءات، وتتحرك في حياتها انطلاقا من قناعتها الفكرية

المنارة للاستشارات

والمذهبية؛ لترسم بذلك كل ما جاء به النص القرآني العريض من أوامر أو نواهٍ..

وهنا ينبغي التنبيه علي متتبع الخطابات القصصية في القرآن الحكيم بأنه سوف يجد أن ثمة قصصا يرد أكثر من مرة في مواضع مختلفة.. وآخر يرد ذكره مرة واحدة فقط.. وأن النوع الأول يأتي في كل مرة يذكر فيها بشكل مختلف، كما نرى في قصص أنبياء الله تعالي: (آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى.. عليهم السلام). والتي نجد فيها نواة وظيفية تتكرر، ثم تتوالى القصص بعد ذلك؛ فيأتي الهدى من الله، ويتبعه الناجون، ويكذّب به الهالكون. ومن ثم يمكن القول بأن النواة الوظيفية التي ارتكزت عليها جميع الخطابات القصصية جاءت متفقة تمام الاتفاق مع موضع أو موضوعات السورة التي وردت فيها، ومن ثم تتفق مع السورة في المقصد الذي تهدف إليه.

فالخطابات القصصية في النص القرآني تأتي داعمة لموضوع السورة التي تحل فيها، ومؤكدة عليه، بل وتأتي شاهدة في أحيان كثيرة لتجسد جزءا لا يتجزأ من النسيج المتين للسور القرآنية.

إن القصة القرآنية تمتزج بموضوع السورة امتزاجا عضويا، لا مجال فيه للفصل بينها وبين غيرها من مجموع موضوعات السورة.. تلك السلسلة من الحلقات المختلفة شكلا، المتناغمة مضمونا، المتناسقة بناء، المتكاملة إيقاعا.. بحيث لو حذفنا القصة . أو قل مشهدا من مشاهدها . من موقعها الوارد في السورة لحصل عدم توازن موضوعي، ولاختل المعنى؛ لأن القصة تسهم في

المنارة للاستشارات

بيان مضمون النص وإيضاحمعاني الخطاب وتعميق فكرته لدى المتلقي.. في جمال أسلوبي ورونق تعبيري وروعة لغوية ووحدة عضوية في إعجاز متكامل..

مع الأخذ في الحسبان أن البنية القصصية الشاخصة التي تقابلنا في كل مرة في القصص المذكور، وإن تغيرت فيها الشخصيات، إلا أنها تظل وظائفها ثابتة؛ تظل الدعوة، ويظل التكذيب، وتظل العاقبة... وكأنها قصة واحدة تتكرر حلقاتها على الصورة نفسها، كلما كانت فترة نسي فيها الإنسان عداوة الشيطان ووعيده القديم .

غير أن الهدف الذي تأتي من أجله القصة . من قصص النبي الواحد . يجعلها تختلف في كل مرة في بنيتها الوظيفية؛ فيكون التركيز على وظائف دون غيرها، ويكون بحضور وظائف أو غياب أخرى، مما يؤثر في متتالية الوظائف، فيجعلها بالتالي قصة جديدة في كل مرة [101].

فالخطابات القصصية في النص القرآني لم تكتف بإثارة الذائقة الجمالية في وجدان المتلقي بجودة العرض، وجمال الأسلوب، وقوة العاطفة، ونشاط الخيال، بل تضمنت الكثير من الأبعاد والتصورات والرؤى التي تتعاطي مع الإنسان بوصفه مرتكزا أساسا يدور حوله الكون .

101) ينظر: د. محمد مشرف يوسف خضر: " خصائص السرد القصصي في القرآن الكريم"، مجلة: حراء، مجلة علمية ثقافية فكرية، تصدر كل شهرين من تركيا، عدد 6، يناير . مارس 2007م، ص57، 58.

المنارة للاستشارات

وكما أن النص القرآني يحوي في مضامينه أحداثا متجددة ممكنة التحقيق، يكشف غيبها بالقراءات الجديدة، فهو إبداع لغوي ونظم فريد خالف أسلوبه كل أدوات التحويل الفكري التي عرفها التاريخ على مستوى الثورات الفكرية والحضارية [102].

فالنص القرآني نص معجز، لا تنقضي عجائبه، ولا تتوقف منابع الجمال فيه عند حد، بل يغدق دوما ظلالا وارفة من ألوان الجمال، وصنوف الإعجاز... والتي تأتي في القمة منها ما يحويه من خصوصية نصية سردية متنوعة يضطلع بها قصص قرآني بالغ الدقة والثراء، معجز في الأداء، ينقل الحدث من حيز الوجود الزمني الضيق القديم إلى حيز زمني متسع متنامي لا حدود له.

ومن ثم جاءت القصة القرآنية "لتُكَوِّن نهجا منفردا، في موضوعها وفي أسلوب أدائها، وفي مقاصدها وغاياتها، بما يحقق للقرآن مقصده الأسمى وهدفه الأصيل.. لكن العجيب في هذا القصص الرائع... أن التعبير القرآني قد ألف فيه بإبداع لا حد له بين الغرض الديني والجمال الفني معا... وجعل من هذا الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني.. فخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية... " [103].

---

102) ينظر: عبد الحليم بن عيسى: (اللسانيات والنص القرآني)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، عدد5، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة . الجزائر 2005، ص 292.

103) د. صلاح الدين محمد عبد التواب: (النقد الأدبي دراسة نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن)، دار الكتاب الحديث، الكتاب الثالث، القاهرة 1423 هـ . 2003م ، ص108.

المنارة للاستشارات

ومما يستوجب النظر في هذا الأمر أن القرآن الكريم توجه إليخطاب أمة كان الشعر ديوانها الأوفى، والأشد أثرا في توجهها، إلا أنه وبرغم ذلك لميحد عن الشعر فحسب، بل استبدله بالقص، وقلب المعادلة لصالحه من دون الشعر، وجعله وسيلته الأهم في التأثيرفي المخاطبين، وهذا يعداختراقا عظيما للذهنية والوجدان العربيين اللذين طُبِعا على الشعر، وأذْعَنا لجرسه، ولاَنا لجمالياته أكثر من سواه من فنون القول الأخرى.

ثالثاً . الخطاب السردي القرآني: خطاب مقاصدي:

وإذا كان ما سبق يمنح للخطاب السردي في النص القرآني خصوصية عن غيرة، فإنه يؤكد من جانب آخر أن هذه الخطابات القصصية في القرآن الكريم تتموضع في تشخيص مقاصدي نموذجي حي لكل موضوعاته. وإن كانت لا تُفَصّل في ذلك ولا تفيض؛ فلأنها ليست للتشريع بقدر ما هي للعبرة والحكمة والعظة والتدبر والتذكر وإزالة الغفلة.

فالقصة القرآنية هي قصة لها أهدافها التي تتلاءم مع مقاصد الكتاب الكريم. فلأن القرآن الكريم كتاب دعوة لا كتاب تاريخ لا تأتي القصة فيه جملة واحدة في مكان واحد، بحيث تستخلص منها حوادث التاريخ مرتبة حسب وقوعها، ولكن للقصة فيه هدفا آخر غير الفن والتاريخ.. وإن تحقيق هذا الهدف يقتضي عدم الاستغراق في تفاصيل القصة بما يزيد عن الحاجة، وأن تتركز أحداثها علي ما جيء بها شاهدا عليه ولأجله [104].

104) ينظر: محمد كاظم الظواهري: (بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم)، دار الصابوني، ودار الهداية، ط1، القاهرة 1412هـ . 1991م، ص41.

المنارة للاستشارات

القرآن الكريم كتاب دعوة، والقصص فيه وسيلة من وسائل الدعوة، تأتي لتحقيق أهداف، وتسعي لنشدان غايات.. كما في قول الله تعالي: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (الأعراف: ١٧٦) .

وقول الله تعالي: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (هود: ١٢٠).

وقول الله تعالي: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (يوسف: ١١١).

فالحق والموعظة والذكري.. هي السمات البارزة المكونة لهذا القصص القرآني العظيم، ومن ثم فهي تتطلب متلقٍ من نوع خاص؛ متمكن من أدواته التي تسعفه على رؤية وقراءة الحق والموعظة والذكرى.. هذا المتلقي هو "المؤمنون" الذين يقرءون ويتلون وينفعلون ويتفاعلون ويفعّلون تلك القراءة، التي لا تحيد عن الطبيعة القصصية في القرآن الكريم، على خلاف أولئك الذين يحاولون إفراغها من الحق والحقيقة والواقعية ويدخلونها في

المنارة للاستشارات

إطار المتشابه من القرآن.. ثم ينقلونها إلى عالم الأمثال التي تضرب؛ لا لكونها حقيقة، ولكن لكونها تحمل فكرة فقط. وهذا علي ما يبدو قربها من مفهوم الأسطورية التي نعت بها كفار قريش قصص الأولين في القرآن العظيم واقتدى بهم بعض المنحرفين في هذا العصر.

من أجل ذلك، لم يكن للخطابات القصصية القرآنية أن تتجاوز هذه الأبعاد علي اعتبار أن القرآن الكريم كتاب هداية ورشاد يسوس الإنسان . بوصفه مخلوقا مكرما في هذا الكون . نحو غايات عظيمة، وأهداف نبيلة، تضمن له بلوغ أعلي درجات الرقي والكمال الذي سيوصله . حتما . إلى هدفه ومبتغاه.

فالخطاب القصصي القرآني وإن اشتمل على آفاق ومقاصد كثيرة ومتنوعة.. امتازت بسمو الغاية، وشرف المقصد، إلا أنه منوط بدور وظيفي توجيهي يتحري صدق الكلمة والموضوع، بحيث لا تشوبها شائبة من الوهم أو الخيال أو مخالفة الواقع .

فمن هذه الوظائف المهيمنة . وهي كثيرة . علي الخطاب القرآني والتي نرصد بعضا منها فيما يلي:

. الدعوة والتوجيه :

تجلت وظيفة الدعوة في الخطاب السردي القرآني في قصص الأنبياء وما يصاحبها من جدل التكذيب والإعراض من أقوامهم.. وقد وردت خطابات كثيرة في هذا الشأن تدل على أن أول كلمة قالها كل رسول لقومه هي أمرهم

المنارة للاستشارات

بعبادة الله تعالى، ونهيهم عن عبادة أحد سواه. فهذا نبي الله نوح . عليه السلام . يقول لقومه كما حكي القرآن عنه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾(لأعراف: ٥٩)

وهذا نبي الله هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (لأعراف: ٦٥).

وهذا نبي الله صالح . عليه السلام . يقول لقومه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (لأعراف: ٧٣).

وهذا نبي الله شعيب عليه السلام يقول لقومه: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾(الأعراف: ٥٨).

فهذه الخطابات الكريمة هي حكاية لما وجهه هؤلاء الأنبياء لأقوامهم من إرشادات وهدايات.. جاءت متحدة في الصيغة الكلية للدعوة، بل وفي ألفاظ

المنارة للاستشارات

الدعوة تقريبا؛ مما يجعل المتلقي يشعر وكأننا أمام نبي واحد ووظيفة واحدة، ورسالة واحدة، ولم لا ؟ وقد حسمها القرآن وأكدها في حكايته لهذا المعنى على لسان كل نبي في قول الله تعالي: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥ ﴾(الأنبياء: ٢٥).

ومن النماذج القصصية التي حملت خطابات توجيهية نحو آفاق عقائدية عن طريق التخويف والإنذار قول الله تعالي: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ ﴾(هود: ١٠٠ – ١٠٣).

ومن النماذج القصصية التي حملت خطابات توجيهية نحو آفاق عقائدية تبرز قدرة الله تعالي علي البعث والإحياء قول الله تعالي: ﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل

المنارة للاستشارات

لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

فمعروف أن التوحيد يشكل الركيزة الأساس في العقيدة الدينية؛ إذ بدون ذلك لا معنى قط للأديان السماوية. لذا كانت أبرز المهام التي اضطلع بها الأنبياء . عليهم السلام . على مر التاريخ هي مهمة التوحيد ونشره بين الأقوام والأمم.

ولا نجد فيما يحكي لنا القرآن نبيا من الأنبياء إلا وسعى جهده بين قومه لتثبيت وحدانية الخالق، وتفرده بالقدرة، ونفي ما سواه من الأنداد والأضداد، وفي سبيل ذلك تحمّل الأنبياء وأوصياؤهم أذى كثيرا من الطواغيت ومن أقوامهم؛ لكنهم واصلوا المهمة دون كلل ولا ملل، وكان لكل نبي أسلوب من الدعوة للتوحيد يختلف عن الآخر بحسب القدرات العقلية لمجتمعاتهم. فهذا إبراهيم . عليه السلام . يثير في نفوس قومه من آيات القدرة والعظمة وأعاجيب الخلق مما لا يمكن إنكاره، ويواصل هذه الدعوة رغم قلة الأتباع، فيوجه إليهم خطابا قصصيا؛ هو قمة الاعتبار والتدبر والتفكر في عظيم قدرة الله عز وجل، وذلك من خلال عرض مشاهد حسية مفعمة بالحركة، فهي قصة حقيقية جيء بها كي تترك أثرا عميقا في نفوس المخاطبين من قومه.

المنارة للاستشارات

. الاعتبار والعظة:

ومن المعاني المهمة التي ساقها النص القرآني للمخاطبين ولفت إليها انتباههم عن طريق الخطاب القصصي العبر والعظات.. فبسبب أهميتها في توجيه نظر المتلقين عرضها الخطاب القرآني في صور شتى.. فعلي سبيل المثال لا الحصر ما جاء في قصة قوم نبي الله يونس . عليه السلام . الذين استجابوا لدعوة الحق، وصدّقوا نبيهم فيما أخبرهم به، وأخلصوا دينهم لله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ (يونس: ٩٨).

ومنها ما جاء بيانا علي سوء عاقبة المكذبين، الذين أصروا على كفرهم، ولم يستمعوا لنصائح أنبيائهم.. فلقد ساق لنا الخطاب القرآني كثيرا من قصص الجاحدين، ثم بين لنا سوء مصيرهم. ومن النماذج الرائعة والموحية في ذلك قصة (قارون) الذي قابل عطاء ربه وتفضله عليه بالكفران والصلف والجحود، فلم يشكر الله تعالى على نعمه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ

المنارة للاستشارات

خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(القصص: ٧٨ - ٨٠).

ومن ذلك قصة (أهل سبأ) الذين قال الله تعالى في شأنهم: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ (سبأ: ١٥ – ١٧).

فلا شك أن هذا المنحى الذي عرض له الخطاب القرآني يسهم إسهاما قويا وفعالا في توجيه المخاطبين أخلاقيا، إذ نلمح في هذه المشاهد المعروضة آفاقا أخلاقية، تهتم بصياغة السلوك المستقيم وترسم له الخطوط العريضة، وتضع النماذج الحية على المستوى الفردي والاجتماعي، بينما تكافح كل سلوك منحرف، وتعرض بعض نماذج الانحراف والمنحرفين، ثم تتعرض تلك القصص للحديث عن النتائج العاجلة والآجلة لأولئك الأشخاص من أهل الاستقامة أو الانحراف، وما آلت إليه أمورهم في نهاية المطاف.

المنارة للاستشارات

. التكافل الاجتماعي:

ومن الأفاق المقاصدية التي أسسها الخطاب القصصي القرآني وعمل علي تأكيدها المنحي الاجتماعي، ودوره في حياة الأفراد والأمم. فمعروف أن القرآن الكريم يؤسس للنموذج الأمثل للحياة الاجتماعية بكل عناصرها، وأنه يعمل علي طرح رؤاه في توافق عجيب يتطابق مع القوانين والنظريات التي يقول بها علماء العلوم الاجتماعية في العصر الحديث.

من هذه الرؤى قصة أصحاب الجنة التي ورد ذكرها في سورة القلم، والتي تحض علي التكافل الاجتماعي الذي أكد عليه القرآن الكريم وضرب له الأمثال. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (القلم: ١٧ – ٣٣).

يسوق الخطاب هذه التجربة إلى قريش من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين؛ ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم. وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين من كبراء قريش من آثار النعمة والثروة، إنما هو ابتلاء من الله له عواقبه ونتائجه. فسنته أن يبتلي بالنعمة كما يبتلي بالبأساء سواء. فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلا لعاقبتهم.. وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم. وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش، فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم؛ فقابلوه بالتكذيب والمخالفة. ولا يخفي ما في القصة من إشارة إلى أن الله تعالى يهتم بتقوية الأواصر الاجتماعية بينأفراد المجتمع: الفقراء منهم والأغنياء المترفين.. واختبارهم بالثروة، والإنفاق على المساكين، وإعطاء كل ذي حق حقه، ومادامت السنن الإلهية في الحياة واحدة، فيجب إذن أن يعتبر الإنسان بالآخرين، سواء المعاصرين له أو الذين سبقوه، فهذه قصةأصحاب الجنة يعرضها الوحي لتكون أحداثها ودروسها موعظة وعبرة للإنسانية.

. الجهاد في سبيل الله:

لقد طرق القرآن الكريم هذه القضية بشكل غير مباشر، بعيدا عن الخطابية والتقريرية ، إذ يشخصها القرآن الكريم بصورة حركية حية، يتوسل فيها بالخطاب القصصي، وذلك بالارتكاز على الأحداث التاريخية والتعبيرات التصويرية المعتمدة على الحركة الإنسانية..كما في قصة "طالوت وجنوده" التي تعرض للموضوع من خلال إفراغه في قالب من

المنارة للاستشارات

الأحداث الواقعية، والمشاهد التاريخية، والشخصيات الحية التي تحث على الجهاد، وتنفر من الركون إلى الدنيا ... بطريقة تعتمد السرد القصصي الذي يحلل المسألة ويتناولها دون اللجوء إلى المنطق الشرعي المباشر المعتمد على الترغيب والترهيب.

يقول الله تعالي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ

مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (البقرة: ٢٤٦ - ٢٥١).

فالذين اغترفوا من النهر وشربوا منه كما شاءوا، فاعلين ذلك من تلقاء أنفسهم، دون الانصياع لأمر نبيهم.. والذين تهيبوا لقاء جالوت وجنوده، بحجة عدم قدرتهم على محاربتهم ونزالهم، هؤلاء وهؤلاء هم أنموذج المتثاقلين إلى الأرض الراغبين في العيش المريح والحياة السهلة، والزاهدين في الجهاد، والمتقاعدين عن الخروج في سبيل الله، والانتصار لأنفسهم ولدينهم.. ولذلك ذكروا في بداية القصة للإشارة لفعلهم، ثم أنكرهم النص القرآني على مستوى الحلئي، كما أنكر وجودهم ضمن الطائفة المؤمنة. فهم كما قال لهم طالوت:

المنارة للاستشارات

(فَلَيْسَ مِنِّي)، وكذلك كان الأمر سرديا؛ لأن الآية ذهبت مباشرة لسرد الأحداث المتعلقة بمن اتبع أوامر طالوت، فجاء قول الله تعالى نفيا لوجودهم: (فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ)، ثم أعقب ذلك حديث الفئة الأخرى التي قالت: (لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ)، ثم جاء الحديث عن الفئة التي قالت: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِين)، وأنكر الآخرين، وكأنهم لا وجود لهم .

وبهذا جاء السياق مباشرة على الشكل التالي: (وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِين)، وخاضوا غمار المعركة، ولم يتخل الله عنهم، ولم يدعهم لأنفسهم، فذكروا على مستوى النص وعلى مستوى الواقع.. ولم يتركهم لعدوهم الذي يفوقهم عدة وعتادا، بل كان معهم ليتحقق لهم النصر بهزيمة جالوت وجنوده.

والناظر لهذه الفئة في القصة يجدها تمثل أنموذجا واقعيا حيا للخطاب الإلهي المباشر القائل: (إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ).

إذن، فطريقة العرض في هذا الخطاب القرآني تشخيصية تصويرية ترتكز على انتقاء لغوي لشخصيات حية من الواقع المشهود، وتبرز مواقفا وأحداثا ملموسة في لغة سهلة؛ تعبيرية وتصويرية.. مفعمة بالحياة والحيوية. إنها طريقة الأسلوب التوجيهي والتربوي التي تجعل للأحداث التاريخية مسلكا إلى القلوب ومعبرا إلى العقول.. وتجعل من المشاهد الحية سبيلا إلى شرح وبسط الفكرة المرادة.

المنارة للاستشارات

إن حضور هذه القصة في فضاء النص القرآني بهذه الكيفية يفرض مستويين من التلقي، مستوي بسيط تبدو فيه القصة وكأنها حكاية تاريخية لا يعني موضوعها أحدا ممن يتلقاها، وإنما هي في ظنه مجرد حكاية تروي أحداثا عن قوم اختلفوا مع نبيهم، أو تحكي عن معركة وقعت بين فئتين. أما المستوي الثاني فهو المستوي العميق للتلقي والذي فيه يظهر المتلقي وقد فهم الخطاب القرآني، واستوعب كيفية أدائه اللغوي وطرائق تبليغه، ومستويات تناوله لدين الله تعالى. فهو يعلم تمام العلم أن القصة في القرآن جاءت أساسا لتشخيص مشاهد كثيرة أخرى وردت في شكل وعظي يحمل الترغيب والترهيب المباشرين.

إذن، الخطاب القصصي في الفضاء القرآني لا يمكن أن يأتي منعزلا عن موضوع السورة التي يرد فيها، وإنما يمتزج امتزاجا عضويا لا مجال فيه للفصل، وما بدا بينه وبينها من اختلاف فهو اختلاف شكلي متناغم مضمونا، ومتناسق بناء، ومتكامل إيقاعا.. بحيث لو حذفنا القصة من موقعها الوارد في السورة . أو قل مشهدا من مشاهدها . لحصل عدم توازن موضوعي ولاختل المعنى؛ لأن القصة تسهم في إيضاح المضامين النصية لمعاني الخطاب، ومن ثم تعمل علي تعميق فكرتها لدى المتلقي.

وإذا كانت كل الخطابات القصصية جاءت مشاهدها متفرقة، لا تجتمع عناصرها المكونة لها في أماكن بذاتها، أو في حيز محدد من خريطة الخطاب القرآني، فإن هذه التفرقة التي لا تلتزم مسارا زمنيا على مستوى الكتابة، تفيد تحديدا عدم تاريخية هذه القصص. لكن ليس بالمعنى المتداول

المنارة للاستشارات

في بعض الكتابات المعاصرة. فالقصص القرآني حقائق حدثت ، ووقائع عيشت ، وصور واقعية.. تفاعلت في الزمان والمكان.. وأن شخوصها قد برزت بشحمها ولحمها في الوجود.. وأن حواراتها وصراعاتها وأحداثها المصورة في القرآن الكريم تحققت كلها على سطح الواقع في فترات متباينة على مر العصور..

رابعاً . الخطاب السردي القرآني وإبداعية المشهد:

إذا ما تتبعنا ملامح البنية السردية في النص القرآني ضمن رؤية تقوم على الذائقة الجمالية، وتستبعد قناعات الأحكام الجاهز في المقاربات التقليدية التي أظنها عاجزة عن استيعاب العلاقات المختلفة التي يطرحها النص القرآني في ظل مسيرة خلوده وعالميته التي ظل ينشدهما . وجدناها كثيرة وثرية ومتنوعة.. بل وتعتبر أغنى الآثار السردية العربية بأنواع السرد؛ لما يتوفر لها من مقومات سردية معجزة، ولما تحمله من خطابات مشعة، تستنهض المتلقي، وتدعوه لإدراك ما بها من جماليات، وما تحتويه من فرائد لغوية وبيانية تُعجزهعن اللحاق بأطيافها المتنوعة..

فقد أولي القران الكريم عناية كبري بالجانب السردي ، فزخرت سوره الكريمة بكثير من الصيغ السردية الباهرة المعجزة؛ ذات البني الفنية والجمالية المتكاملة ..

وحتى نستبين صورة هذه الأبنية في تشكلها الفني الجمالي لابد من تخطي ما نحن فيه من الوضعية النظرية إلي حيز الوضعية التطبيقية

المنارة للاستشارات

العملية، وفي هذا الحالة سوف يكون اشتغالنا علي بعض (نصوص/آيات/ قصص) قرآنية حملت خطابات استطاعت أن توظف فنية القوالب السردية في تكوين بناء سردي محكم ينطوي على قوانين السرد وأنظمته، ويضيف إلي آلياته ووسائله المعروفة..والتي لو تتبعنا خطاها لأفاد منها السرد العربي الحديث والمعاصر علي مستوي بنياته الفنية المكونة له، وأصبحت لدينا نظرية سردية متميزة بل وذات فرادة.

فقد انطوي الخطاب القرآني علي كثير من البنيات السردية المحكمة في آلياتها ووسائل طرحها، والتي شكلت مرتكزا مهما قامت عليه بنيات الخطابات السردية الحديثة سواء في مستوي الحوار أو الشخوص أو الزمان أو المكان ، والتي ننمذج لها قرآنيا فيما يلي:

. بنية الحوار:

ومن ذلك علي سبيل المثال قول الله تعالي: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ

المنارة للاستشارات

﴿ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ٨٣ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٥ ﴾ (ص: ٧١ – ٨٥).

تبدأ القصة بصيغة سردية مهيمنة على الحكى، وهي صيغة المنقول المباشر، وتطبعه من ثم بطابع أمانة النقل للقول الوارد، وهي صيغة استباقية ترتب للعلاقة بين زمني القصة والسرد، حيث تبدأ القصص باستباق، يهيئ نفس المتلقي، ويوجه توقعاته [105].

والملاحظ في هذا الخطاب القرآني هو هيمنة المشهد الحواري علي بنيته السردية القصصية، وتقارب الزمن القصصي مع الزمن السردي، حتى صار حاضر السرد هو نفس حاضر الأحداث، مما ينعكس علي نفس المتلقي، ويحوله إلى شاهد عيان يبصر الوقائع بنفسه، فينفعل بها، ويتفاعل معها، كأنه واحد من شخوص المشهد. فدلالات التعبير في هذا النسق القصصي الكريم، تشير إلي قصة خلق الله لهذا الكائن البشري من الطين. فلقد نفخ الله من روحه في هذا الكائن البشري، وأودعه سر من أسراره؛ لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفته في الأرض وأن يتسلم مقاليد الإعمار في هذا الكوكب بمقتضياتها من قوى وطاقات.

---

121) على نحو ما نجد في قصص آدم عليه السلام حيث هناك الاستباق الإعلاني الذي يتصدر أكثر الآيات، كما في سورة: (البقرة،آية: 34)، وسورة: (الإسراء، آية: 61)، وسورة: (الكهف،آية: 50)، وسورة: (طه،آية: 116)، وسورة: (ص،آية: 71) التي نحن بصددها.

المنارة للاستشارات

ومن أجل ذلك هيأ الله تعالي له أسباب القدرة علي تلك المهمة، فارتقي في المعرفة، واستمر من يومها علي هذا الارتقاء، طالما كان موصولا بمصدر تلك النفخة، واستمد من هذا المصدر في استقامة. ما لم يقده انحرافه عن ذلك المصدر العلوي، فتهبط به إلى نكسة في خصائصه الإنسانية، فتودي به في سلم الارتقاء الحقيقي حتى ولو تضخمت علومه واتسعت تجاريه في جانب من جوانب الحياة.

وما كان لهذا الكائن البشري صاحب الإمكانات المحدودة . حجما وعمرا ومعرفة . أن ينال شيئا من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة التي حظي بها..

والتي بسببها حاذ هذا الإنسان خصوصية في الخلق تستحق هذا التنويه؛ هي خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية، والتي كان من موجباتها أن تسجد له الملائكة امتثالا لأمر الله، وشعورا بحكمته فيما يراه..

ولكن إبليس اللعين الذي تستبد به الغفلة عن حقيقة العنصر الكريم الزائد على الطين في آدم، والذي يستحق بسببه التكريم . يتخلف عن أمر الله، حسدا وحنقا، فلا يسجد، ولا عجب، فالطبائع التي تجردت من الخير، لا يستبعد عليها صدور مثل هذا الفعل القبيح في هذا الموقف المشهود.

المنارة للاستشارات

وهنا يصدر الأمر الإلهي العالي بطرد هذا المخلوق المتمرد القبيح جزاء الرفض والتجرؤ على أمر الله الكريم . فتبرز نفسية هذا المخلوق اللعين الذي أخذه الكبر والغرور فرفض طاعة أمر الله.

وهنا يرسم التعبير الكريم حسده وحقده الدفين وخبثه وجهده وعزمه في إغواء جميع الآدميين، دون أن يستثني منهم أحدا، إلا من ليس له عليهم سلطان؛ لا تطوعا منه، ولكن عجزا عن بلوغ غايته فيهم! لأنهم احتجبوا عنه بإخلاص عبادتهم لله تعالي.

إنه مشهد أو خطاب ساقه السرد القصصي عبر الحوار الخارجي ، وهو ما أثار مشاعر المتلقي، وأعطاه إحساسا بالمشاركة الحادة في الفعل. إنه يسمع عنه معاصرا وقوعه كما يقع بالضبط في لحظة وقوعه نفسها؛ لذلك تتبدي لحظات المشهد مشحونة بذروة سياق من الأفعال في مشهد تشخيصي تبرز فيه العينة الفاسدة، التي يجسدها مايكنه إبليس وقبيله لبني آدم من كره وحسد وحقد ..

فعنصر الحوار الخارجي يشكل في البناء السردي للخطاب القرآني إحدى حيوات القصة التي تكشف بأعلى درجاتها عن دوافع الشخصيات المتحاورة وعن رغباتها وصراعاتها. لكن ترك الشخوص القصصية تتحدث بنفسها يظل أكثر حيوية من مجرد نقل كلامها إلي الغير، كما أن ما لديها من أفكار لا يستطيع المتلقي معرفتها، أو الاطلاع عليها مالم تعلنها بنفسها، فضلا عن أن بعض الأسرار لا يمكن التحدث عنها حتى بلسان البطل، بل يظل يبوح بها مع نفسه، بغية توفير عنصر الإقناع من جانب، وتحقيق

المنارة للاستشارات

المتعة الفنية التي يتطلبها شكل القصة من جانب آخر. وهذا ما يقوم به الشكل الآخر من الحوار، وهو الحوار (الباطني) (المونولوج/ monologue). كما ورد في كثير من الخطابات القصصية القرآنية، والتي منها علي سبيل المثال قول الله تعالي: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ (الإنسان: ٥ – ١١).

ترسم القصة من خلال بنية سردية سابقة سمات الأبرار في عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يتناسب مع ذلك النعيم الهانئ الرغيد. ثم تعرض ما يلاقيه هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف من جزاء عظيم، جراء خوفهم من الله، دون حاجة لشكر أو جزاء من مخلوق.

فالقصة تتحدث عن بيئة الجنة وموقع الأبرار منها، وبطريقة فنية في التعامل مع الزمن، حيث تنتقل من بيئة الجنة إلى بيئة الدنيا، فتنقل عن هؤلاء الأبطال بأنهم كانوا يوفون بالنذر ويخافون الحساب ويطعمون الطعام لوجه الله، ثم تقطع القصة عنصر السرد، وتترك أبطالها يتحدثون بأنفسهم عن حقيقة سلوكهم الذي استحقوا عليه هذا الموقع المذكور من الجنة.

المنارة للاستشارات

فهؤلاء الأبطال وإن كانوا قدّموا طعامهم إلى الفقراء إلا أنهم لم يقولوا لهم: (إنما نطعمكم لوجه الله ...)، كما أنهم لم يجاهروا بذلك فيما بينهم، بل لم يصوغوا ذلك "كلاما خفيا" مع أنفسهم، بل كان مجرد "تفكير" يحيونه داخل أنفسهم؛ أي أنه كان يجسد فعلا داخليا، أو قل "نوايا" في أذهانهم تبلورت نتيجة انفعالهم بحالة هؤلاء الممنوحين . المساكين واليتامى والأسري . ولكن دون أن تنطق ألسنتهم بكلمة خفية أو معلنة.

ويمكننا أن نسمي هذا الفعل حوارا تفكيريا أو ذهنيا. وأهمية مثل هذا الحوار في القصة المذكورة تتمثل في لفتها الانتباه إلى أن كمال الأعمال منوط بابتغاء وجه الله. وكي تجسد القصة هذا الهدف اتجهت إلى إبراز نوايا الشخصية التي لا مناص من كشفها في (حروفٍ مكتوبة) لكي يتعرّفها القارئ ويفيد منها في تعديل سلوكه .

. بنية الزمن:

ومن العناصر التي شكلت مرتكزا أساسا في بناء القصة في الخطاب القرآني عنصر الزمان؛ إذ يشكل عاملا مهما من عوامل تحريك أحداثها وتلوينها بحيث تشد النفوس إليها.

المنارة للاستشارات

فالزمن يرتبط ارتباطا وثيقا بالحكاية، "فهو بمثابة الإيقاع الذي يضبط أحداثها، والشاهد الحي علي مصير شخصياتها، والعنصر الفعال الذي يغذي حركة الصراع الدرامي فيها "[106].

فمن خلال الزمن تنسكب الأحداث، وتخرج في صورة تعمل علي تقريب المشهد وتجليه بالكشف عن أبعاده ومراميه. "فهو يعطي للحدث صبغة خاصة تشير للحين الذي وقع فيه، وتضفي على الجو العام ظلالا توحي بأبعاد دلالية تسمح بها حدود التأويل" [107].

وقد تجلت فنية الزمان حين وظفها الخطاب القرآني من خلال بنيته السردية القصصية، فجاءت وحدة رئيسة، ومرتكزا مهما في إنماء الحدث السردي، وفي ربط المتلقي بغايات هذا الخطاب ودلالاته؛ مما جعل القصة تتسم بالحيوية والدينامية والإيماء. والأمثلة القرآنية الدالة على الإعجاز التوظيفي لعنصر الزمن في الخطاب القرآني في بنيته السردية كثيرة كما هي في قصة يوسف عليه السلام، وقصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة موسى عليه السلام... والتي نعرض لها . علي سبيل المثال . كعينة مدروسة في هذا الموضع.

---

123) د. عبد الفتاح عثمان: (بناء الرواية . دراسة في الرواية المصرية)، مكتبة الشباب، القاهرة، (بدون)، ص 54.

124) د. التهامي نقرة: (سيكولوجية القصة في القرآن الكريم)، الناشر الشركة التونسية، ط 1، تونس 1974م ، ص504.

المنارة للاستشارات

إن المتتبع لقصة سيدنا موسي ؛ عليه السلام والتي استغرقت سورة القصص [108]، يلاحظ حقيقة انتظام السرد في عرض زمن الأحداث؛ نتيجة لأن الإطار التاريخي هو الحاكم لهذه القصة، فهي أحداث تمت من زمن بعيد مرتبطة في تسلسلها بالمكان والأشخاص. ولأن النص القرآني هو الحامل الأمين لهذا الحكي فإن القصة تبتعد تماما عن التزيد البشري للحكايات، وتعتمد الحكي الحقيقي لما جرى من أحداث.

فقد جاء الزمن في أحداث القصة ليؤدي دورا مهما في الكشف عن شحناتها الدلالية. فالنظام السردي في هذه قصة يسير بأحداث القصة سيرا منطقيا، حيث تتحرك فيه الشخصية الرئيسة داخل القصة على مسرح الأحداث بإرادة فاعل حقيقي هو الله . سبحانه وتعالى . وهذه الشخصية تتحرك بإلهام إلهي لتجسد مراد الله تعالي فيه منذ بداية حياته وحتى نهايتها، وذلك من خلال محطات زمانية تمر بها حياة هذه الشخصية، ليتحدد علي إثرها مسيرتها الحياتية وما ينتظره من صراعات (حبكات)، ومن ثم يتم التفاعل بين هذه المكونات السردية الشخصية المحورية، والزمان، والمشكلة الحبكة.

125) وقد وردت هذه القصة في غير هذه السورة متفاوتة الطول بين مشاهد قصيرة أو لمحة عابرة حوالي خمس عشرة مرة في سور القرآن الكريم علي الترتيب التالي: (البقرة . المائدة . الأعراف . يونس . النحل . الإسراء . الكهف . مريم . الشعراء . النمل . القصص . غافر . الزخرف . الدخان . الذاريات . القمر . النازعات).

المنارة للاستشارات

فكما أسلفنا القول أن القصة تحيل في أحداثها إلى وقائع لها حضور تاريخي، تعتمد علي التسلسل المنطقي للأحداث عبر الزمن، وتشتبك بأزمنة وأمكنة مع الأحداث والأشخاص.

وإذا كان السرد القرآني لأحداث القصة يتسم بطابع التسارع الزمني . رغم الاستطالة الواقعية للزمن المتوافق مع الحدث . إلا أن أحداث القصة جاءت متنامية متتابعة يتلو بعضها بعضا في حلقات محكمة، تتسم بالوحدة العضوية.

من أجل هذا كان مسار السرد الزمني للأحداث مكثفا للغاية، يعتمد على اللمحات الخاطفة دلاليا، والتي يختصر فيها الزمن. فلا يمكن منطقيا متابعة عرض قصة سيدنا موسي عليه السلام . والتي استمرت ما يقرب من خمسين عاما من بداية حياته إلي نهايتها، إلا بالاستعانة بالتلخيص.

وأول ما يطالعنا من هذه اللمحات ما جاء في قول الله تعالي : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (القصص: ١٢ – ١٣).

فمن الإشارات السردية ذات الدلالة الموحية المرتبطة بالزمن توظيف الخطاب القرآني ظرف الزمان (قبل) " أي من قبل أن رددناه إلى أمه ومن

المنارة للاستشارات

قبل مجيء أخت موسى عليه السلام، ومن قبل ولادته في حكمنا وقضائنا " [109]. وهذه إشارة دلالية توحي بأن هناك محاولات كثيرة جرت لإرضاع سيدنا موسي عليه السلام . ولم تفلح، وأن الله تعالي صانه عن أن يرتضع غير ثدي أمه؛ ليجعل ذلك سببا في رجوعه إلى أمه لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة. ولو أن هذا لم يحدث ما تحقق وعد الله . عز وجل . لأم موسى بإرجاعه إليها. فكان مجيء الزمن بلفظ "قبل" قرينة ساعدت على أن شيئا ما سيترتب بعد الامتناع عن الرضاعة، وهو عودته لأمه، وتحقيق الوعد الإلهي لتتحلحل بذلك عقدة من القصة.

وبعد هذا يسود سياق القصة سكوت طويل، فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه؟ ولا كيف تربى في قصر فرعون؟ ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة؟... لتبدأ حلقة تالية من حلقات القصة مباشرة فنبصره قد بلغ أشده واستوى، وآتاه الله الحكمة والعلم، وجزاه جزاء المحسنين، وهنا يأتي الزمن مرة أخري ليؤطر وقت دخوله المدينة [110]، وذلك في قول الله تعالي: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ

127) الرازي: (فخر الدين محمد بن عمر التميمي): (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير)، دار الكتب العلمية، ط1، ج 24، بيروت 1421هـ . 2000م، ص198.

128) ويرجح أنها مدينة (منف) عاصمة الدولة المصرية القديمة . آنذاك.

المنارة للاستشارات

عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾(القصص: ١٥).

ففي هذا المشهد السردي تعاضدت البنية الدلالية للفظة "حين" الذي يرتب لزمن دخول سيدنا موسي عليه السلام . المدينة، مع لفظة "غفلة"، من أجل توجيه سياق الحكى نحو وجهة تخدم السرد القصصي. فسيدنا موسى عليه السلام . بعد أن بلغ أشده واستوى وآتاه الله الحكم والعلم، علم أن فرعون مصر وقومه على الباطل، فأنكر عليهم ذلك، وعاب دينهم واشتهر ذلك منه فتوعدوه.. مما استحال عليه دخول مدينة فرعون إلا في حالة من الخوف، ولأجل هذا ارتهن دخوله فيها بزمن غفلة أهلها، فكان دخوله لها علي اختلاف المفسرين في وقت " ما بين العشاءين. وقيل: وقت القائلة. وقيل: يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهوهم"[111].

كما نلمح في النسيج السردي للقصة توظيف كلمة (بالأمس) في قول الله تعالي: ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ

130) الزمخشري: (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد): (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، دار الكتاب العربي، ج 3، بيروت 1407 هـ، ص398.

المنارة للاستشارات

أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (القصص: ١٨ - ١٩).

فلكلمة "بالأمس" في الآيتين دلالتها القوية في البناء السردي للخطاب القرآني، ففي الآية الأولي تتكشف دلالة المشهد في محيطها الزمني المرهون بـ (الأمس) . بمجيئها بين فعلي (الاستنصار والاستصراخ) . لتفصح عن حقيقة هذا الرجل الذي ينتمي إلي شيعته وتبين عن خصاله، إذ تنكر لصنيع نبي الله موسي. أما في الآية الثانية فتشي بزمن ارتبط في ذاكرة نبي الله موسي عليه السلام . بأزمة مريرة ضاغطة، استحالت إلي مصدر قلق وتوجس وندم وتنغيص.

إذن، فالزمانية في الخطاب القرآني تأخذ كينونتها الجمالية من قيمها التعبيرية المطلقة، التي تأتي منسجمة مع جوهر البنية الدلالية الكامن في السياق التوجيهي الذي يرمي إليه الخطاب القرآني في القصة من مقاصد وغايات وعظات دينية ..

. بنية المكان:

كذلك شكلت دلالات المكان بعدا جماليا آخر في البنية السردية للخطاب القرآني، فقد أسهم الفضاء المكاني في بناء الأحداث القصصية، وشكل وضعية مادية من وضعيات نضجها واكتمالها.

ورغم أن المكان يشغل قوة عاملة . بقدر ما . في تشكيل الحدث، وإبراز معالمه إلا أنه يأتي في مرتبة تالية للزمن، وبهذا القيمة تعامل السرد

المنارة للاستشارات

القصصي في الخطاب القرآني مع المكان، "فلا يلتفت إلي المكان، ولا يجري له ذكرا إلا إذا كان للمكان وضع خاص يؤثر في سير الحدث، أو يبرز ملامحه، أو يقيم شواهد العبرة والعظة منه" [112] .

وهو ما يعني أن ذكر المكان في القصة القرآنية مرتبط بما يمكن أن يضيفه من قيم نفسية وروحية تفتقدهما الحادثة والشخوص، والتي ما كانت لتتواجد لولا اقترانها بالمكان. فقيمة المكان الجمالية كعنصر مؤسس من عناصر البنية السردية في الخطاب القرآني تنبع من تجاوزه لكونه إطارا ماديا يحوي الأحداث وتتحرك في محيطه الشخصيات، بحيث يصبح أداة فاعلة في تلوين هذه الأحداث، واحتواء هذه الشخصيات.

فالفضاء المكاني يشكل مرتكزا مهما يبني عليه الخطاب القرآني، وفيه يرتهن وجوده بوجود الحدث، حيث يسهم في صياغته والتمكين له، ويوضح سير الحدث وتسلسله ويكشف عن نتائجه.

وقد سرد القرآن الكريم قصصا عديدة.. ذُكر فيها المكان بشكل صريح ومباشر، وقد احتوي دلالة مرجعية إشارية كما هو حادث في "أسماء الأمصار: (مصر، يثرب، سيناء، الطور، حنين، بدر)، أو الأماكن المعلومة

132) د. عبد الكريم الخطيب: (القصص القرآني في منطوقه ومفهومه)، دار المعرفة، ط 2، بيروت . لبنان 1395 هـ . 1995م، ص92.

المنارة للاستشارات

أو التي اكتسبت علميتها من خلال إثبات السياق القرآني لها، مثل: سدرة المنتهى، الكهف" [113].

ومن جماليات السرد في هذا المقام ما نلحظه في قصة جيش المسلمين يوم حنين في قول الله تعالي: ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ﴾ (التوبة: ٢٥).

تتبعث جماليات المكان في هذا الخطاب القرآني السردي من زاوية أنه جاء موافقا لتطور الحدث، حيث ذكر الخطاب المكان في هذه القصة ليبرر وقوع الحدث الثاني، والذي تمثل في تذكير المسلمين بهزيمتهم يوم حنين حينما اغتروا بكثرتهم، ثم نصرهم الله بقوته، ليكونوا عبرة بعد أن غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة في العدد والعتاد. ليعلم المؤمنون أن التجرد لله وتوثيق الصلة به هي عدة النصر التي لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة في العدد والعتاد.

فجاء تخصيص المكان بيوم حنين بالذكر من بين أيام الحروب " لما فيه من العبرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله ورسوله ﷺ وحصول الهزيمة عند إيثار الحظوظ العاجلة على الامتثال ففيه مثل وشاهد لحالتي الإيثارين المذكورين آنفا في قوله تعالى: (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ

133) د. سليمان عشراتي: (الخطاب القرآني...)، مرجع سابق، ص147.

فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِين) ليتنبهوا إلى أن هذا الإيثار قد يعرض في أثناء إيثار آخر، فهم لما خرجوا إلى غزوة حنين كانوا قد آثروا محبة الجهاد على محبة أسبابهم وعلاقاتهم، ثم هم في أثناء الجهاد قد عاودهم إيثار الحظوظ العاجلة على امتثال أمر الله ورسوله عليه السلام الذي هو من آثار إيثار محبتها وهي عبرة دقيقة حصل فيها الضدان ولذلك كان موقع قوله (إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ) بديعا لأنه تنبيه على خطئهم في الأدب مع الله المناسب لمقامهم أي: ما كان ينبغي لكم أن تعتمدوا على كثرتكم " [114].

وهكذا يكون للفضاءات المكانية المكونة للبنية السردية في القصص القرآني قرائنها التي تجمعها بالأحداث المنسكبة فيها، فتكون مبررا لنتائج الحدث، فنلاحظ بينهما توافق وانسجام، يفضي بصورة حتمية إلي إثراء البنية السردية في النص القرآني بصورة جمالية بارعة.

ويمكن أن نحدد معالم هذه الجمالية من خلال صورتين متراكبتين يتموضع فيهما الفضاء المكاني؛ تتحقق الأولي منهما بتمفصل الفضاء المكاني في السرد القصصي في صورة محورية، يترتب عليها اشتغال هذا المكاني فيأتي دليلا معرفيا يسمح بتوجيه فكر القارئ على نحو يفهم معه ما في النص على أنه ليس منعزلا عن الواقع، مما يضفي على النص طابع

135) الطاهر بن عاشور: (التحرير والتنوير. .)، مرجع سابق، جـ1، ص 1831.

الصدق ويجعله نموذجا من الواقع، وإذا كان هذا علي مستوي القصة الفنية فكيف بالقصة القرآنية التي تسرد وقائع حقيقية لا يشوبها كذب أو تلفيق[115].

. بنية الشخصية:

ولا يمكن للسرد القرآني أن يكتمل في معطاه القصصي، أو يفرض نفسه بكثافة دون أن نتحدث عن الشخصية، وما تؤديه من أدوار مهمة وفاعلة فيه. فالشخصية في محيطها السردي قد أنيطت . بما تملكه من سيولة تعمل علي تنامي المسارات المختلفة لبنية الحكي الدلالية . بأداء أدوار مهمة لها خصوصيتها في لفت نظر المخاطب وشد انتباهه كي ينفعل بغايات الخطاب القصصي القرآني، ومن جهة أخري، تحويل البناء السردي إلي نبع ثر، ومنجم بكر، وخزان متسع يمدنا بأنواع سردية لا تحصى "يقف فيه المرء على السنن النفسية والاجتماعية والإيمانية في الفرد والمجتمع والأمم" [116].

يمور الخطاب القصصي القرآني بأنواع عديدة من الشخوص القرآنية نتيجة لتنوع السرد فيه، الأمر الذي لا يمكننا من إحصاء دقيق لهذا العدد الهائل لأنواع هذه الشخوص. لكن حسبنا هنا فقط أن نقدم تعريفا لأنواعها. "فهي عالم

136) ينظر: آمنة عشاب: (الحبك المكاني في السياق القصصي القرآني سورة يوسف أنموذجا)، رسالة تخصص . ماجستير، جامعة حسيبة بن بوعلي، كلية الآداب واللغات، الجزائر 2006 . 2007م، ص 69.

(116) د. عدنان زرزور: (القرآن ونصوصه)، مطبعة خالد بن وليد، دمشق 1980م، ص332.

المنارة للاستشارات

قائم بذاته، تتنازع فيه الأرواح البشرية والملائكية والنبوية والجنّية والحيوانية والشيطانية، إنه عالم ملكوتي من الصعوبة تحديده كلّه[117].

وإذا ما وقفنا لانتخاب بعض النماذج الكاشفة عن طبيعة البناء الفني للشخصية في الخطاب القصصي القرآني وجدنا أن منطق البناء السردي في القصة القرآنية يقوم بتناول الشخصية من خلال وضعها "في مواقف متجددة، بحيث يتجدد المسار القصصي ويندفع إلى النمو وهذا التوجيه البنائي يدفع بالشخصية إلى الحركة الدائمة، ما يجعلها تتخذ مسلكا ما يمليه عليها الموقف أحيانا، وأحيانا أخرى يكون هذا الاتجاه نابعا من ذاتيتها هي وما تلتزم به في نفسها أساسا من قيم واتجاهات ومبادئ وأصول راسخة" [118].

من هذه النماذج التي أبدع السرد القصصي القرآني في تجسيدها وإخراجها إخراجا جماليا رائعا شخصية خليل الله سيدنا إبراهيم . عليه السلام . والتي تعددت زوايا مناقبها، بما يجعلنا نقصر تحديد ملامحها في بعض هذه الزوايا. وقد آثرت أن تنبثق ملامح هذه الشخصية من خلال محيطها الأسري.. سواء في كيفية الحديث مع الأب أو الاهتمام بالأسرة أو معاملة الابن.

---

(117) شارف مزاري: (مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001م، ص30.

139) محمد قطب: (القصة في القرآن الكر يم . مقاصد الدين و قيم الفن)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة2001م، ص48.

المنارة للاستشارات

تبرز ملامح النموذج الأول منها واضحة جلية في قول الله تعالي: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ (مريم: ٤١ - ٤٨).

يعتمد السرد منذ بدايته على تحديد ملامح الشخصية الرئيسة، وذلك بالاقتراب من صورتها السيمية أو المظهرية؛ فتم التعريف ببعض ملامحها أو صفاتها الخلقية في تعاطيها الكلام؛ وهي الشخصية المرسلة من عند الله تعالي . مع شخصية الأب الكافرة التي لاتؤمن بالله وتحرض علي عبادته. فشخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام . تبدو في هذا المشهد السردي شخصية سيدنا إبراهيم . عليه السلام . وقد اكتنفها الرضي والحلم، فتبرز ألفاظه وتعبيراته وقد لفتها سحابة من الوداعة والحلم والحياء والرفق.. في ملاطفة أبيه الذي يقابله بتصرفات حانقة جاهلة غير مسؤولة.. فيتوعده ويتهدده. فيصف السرد القرآني سيدنا إبراهيم في سموها الإنساني بالصدق والنبوة بما

المنارة للاستشارات

يتناسب مع شخصيته في تعاملها بهذا اللطف في خطاب دعوته لأبيه. فيحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه في تحبب ومودة فيخاطبه بقوله: "يا أَبَتِ"، ويسأله عن سبب عبادته لما هو دون الإنسان في المرتبة، بل إلى ما هو في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضرا ولا نفعا.

ورغم أن الأب يقابل دعوة الابن إلي الهدي بكل جهالة وقساوة، فإن هذا لم يغضب إبراهيم الحليم، ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه، وذلك هو شأن الإيمان مع الكفر، ومع كل ذلك فلا جدال ولا أذى، ولا رد للتهديد والوعيد، بل السلام وطلب الغفران من الله والرحمة والدعاء بالهدى لأبيه هو المقابل.

هكذا، أبدع السرد القصصي في الخطاب القرآني في رسم شخصية سيدنا إبراهيم وتقريب معالمها...كما أبدع في غيرهمن الشخصيات المختلفة الأبعاد والصفات، فرأينا كيف توافق فيها جمال التعبير مع جمال الصورة، حتى اتسقا في ساحة الأجواء القرآنية أهدافا نبيلة سامية.. جاءت مفعمة بشتى مجالات التأثير؛ فكملت معالم هذه (الشخصية / الشخصيات) بفضل النسق البديع والتصوير المعجز. وما أوردناه من إبداع الرسم القرآني لا يمثل سوى أقل القليل من النماذج المتعددة التي حظيت بها بنية السرد القصصي فيالنص القرآني.

. الخاتمة:

وفي نهاية هذا التطواف يطيب لي أن أختم ورقتي البحثية بنتيجة كبري أطرحها في مساءلة عريضة مفادها: إذا كان لا خلاف في أن القرآن الكريم

المنارة للاستشارات

هو الفضاء الروحي والفكري الذي صاغ الهوية الحضارية العربية الإسلامية، وهو النبع المتدفق الذي يرفدنا بالمعنى والقيمة، فلم لا ننحاز إليه ونتمركز حوله، كي نستكشف ماهيته الجمالية، ونبحث فيه عن أسس لاشتغالات جمالية، تكون منطلقا لسردية عربية إسلامية ذات مضمون روحي متميز، وتعمل علي تجدد رسالته، وترسيخ قيم الحسن والجمال فيه، حتى يفيد منها الإنسان في بناء وتطوير ذاته معرفيا وسلوكيا وذوقيا..وبخاصة في هذا العصر؟!

. المصادر والمراجع:

. آمنة عشاب: (الحبك المكاني في السياق القصصي القرآني سورة يوسف أنموذجا)، رسالة تخصص . ماجستير، جامعة حسيبة بن بوعلي، كلية الآداب واللغات، الجزائر 2006 . 2007م.

. تمام حسان: (البيان في روائع القرآن)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج ٢، القاهرة 2000م .

. التهامي نقرة: (سيكولوجية القصة في القرآن الكريم)، الناشر الشركة التونسية،ط1 تونس 1974م .

. الرازي: (فخر الدين محمد بن عمر التميمي): (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير)، دار الكتب العلمية، ط1، ج 24، بيروت 1421هـ . 2000م.

المنارة للاستشارات

. الزمخشري: (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد): (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، دار الكتاب العربي، ج 3، بيروت 1407 هـ.

. سليمان عشراتي: (الخطاب القرآني . مقارنة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1998م.

. شارف مزاري: (مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001م.

. الطاهر بن عاشور: (محمد الطاهر بن محمد بن محمد): (التحرير والتنوير . تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدار التونسية للنشر، جـ2، تونس1984م.

. صلاح الدين محمد عبد التواب: (النقد الأدبي دراسة نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن)، دار الكتاب الحديث، الكتاب الثالث، القاهرة1423 هـ .2003م .

. عبد الحليم بن عيسى: (اللسانيات والنص القرآني)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، عدد5، جامعة الأمير عبد القادر، قسطنطينة . الجزائر2005م .

. عبد الفتاح عثمان: (بناء الرواية . دراسة في الرواية المصرية)، مكتبة الشباب، القاهرة،(بدون) .

. عبد الكريم الخطيب: (القصص القرآني في منطوقه ومفهومه)، دار المعرفة، ط2، بيروت . لبنان 1395 هـ . 1995م .

المنارة للاستشارات

. عدنان زرزور: (القرآن ونصوصه)، مطبعة خالد بن وليد، دمشق 1980م.

. فاطمة الطبال بركة:(النظرية الألسنية عند رومان جاكسبون)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط1، بيروت 1993م.

. محمد عبد اللاه عبده دبور: (أسس بناء القصة من القرآن الكريم . دراسة أدبية ونقدية)، رسالة دكتوراه، مخطوطة، كلية اللغة العربية بالمنوفية، جامعة الأزهر 1417هـ . 1996م. .

. محمد قطب: (القصة في القرآن الكر يم . مقاصد الدين و قيم الفن)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة2001م.

. محمد كاظم الظواهري: (بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم)، دار الصابوني، ودار الهداية، ط1، القاهرة 1412هـ . 1991م.

. محمد مشرف يوسف خضر: " خصائص السرد القصصي في القرآن الكريم"، مجلة: حراء، مجلة علمية ثقافية فكرية، تصدر كل شهرين من تركيا، عدد6، يناير . مارس 2007م.

. مينكونو: (عناصر لسانية من أجل النص الأدبي)، ترجمة: رشيد بن مالك، دار الحوار، سوريا، ٩٨٦م.

المنارة للاستشارات